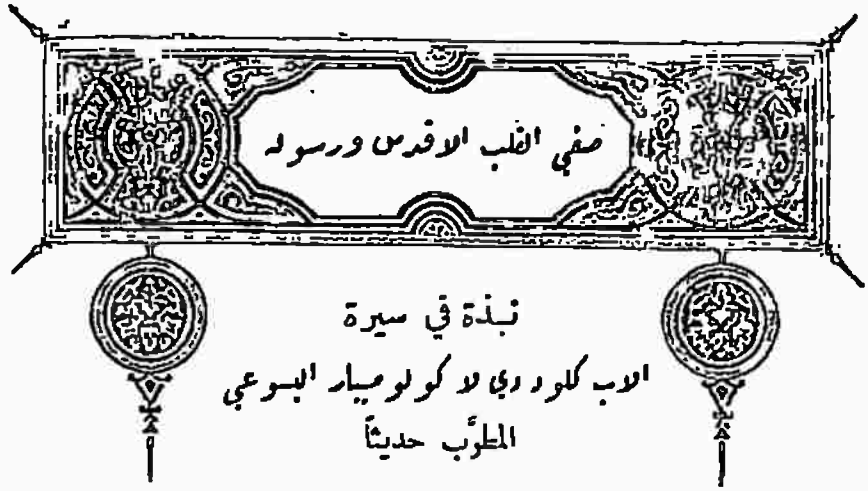

نبذة في سيرة
الاب كلود دي لا كولومبيار اليسوعي
المطوَّب حديثاً

بقلم الاب شرل ايلا اليسوعيّ

٦

مختار القلب الالهي

ولم يكتفِ قلب يسوع بان يعيّن الاب دي لا كولومبيار مُرشدًا لمتسلّمة اسراره ، بل اختاره هو ايضاً صفياً ورسولًا له.

هذا ما يتضح جليًّا ممّا اوحاه عزّ وجلّ ، لأمتهِ القديسة . فما كتبت قولها :

« واذ جاء ذات مرة لاقامة القداس في كنيستنا ، مجادَ الربُّ عليه ، كما وعليَّ ايضاً ، بنعم عظيمة للغاية . فانه ، لما تقدمتُ للمناولة ، اراني قلبه الاقدس كأتون متّقد وقلبين آخرين يلجانه ليتحدا ويندمجا فيه ، وهو يقول لي : هكذا يصل حبي هذه القلوب الثلاثة على الدوام . ثم افهمني ان الاتحاد هذا انما هو بتامه لمجد قلبه الاقدس ، وانه يرغب في ان اكشف للاب كنوزه ، كيما يستطيع ان يعلن ويذيع قيمتها ومنفعتها . . . وقد فاتُ ما اراني الرب عند مواجهتي الاولى للأب . اما هو فالكلام الذي تلقته اليه ، كما وغيره مما له علاقة به وكلفني الرب الاله تبليغه من قبله ، فقد تقبّلهُ بطاعة الانضاع والشكران ، مما اثّرَ فيَّ شديدًا ونفعني اكثر من كل الحظات التي كان يمكنني سمعها . »(١)

وما عتم الرب يسوع ان اوضح رغائبه لصفيّه بنوع جلي مدقق مفصّل وذلك في الرؤيا الشهيرة التي حظيت بها القديسة مرغريتا مريم في ١٦ حزيران

---

(١) *Vie et Œuvres de la* Bienheureuse Marguerite-Marie Alacoque, *Paris, Poussielgue, tome II p. 347.*

١٦٧٥ . واليك ما كتبت عنها:

«كنت مرةً امام القربان المقدس، في احد ايام ثمانية عيده. فاعطاني نعماً وافرة من حبه. واذ شعرت بنفسي تتوق الى بعض المبادلة بأن اقابل حبه بالحب اجابني: «لا تستطيعين ان تقدمي لي حباً اعظم من ان تفعلي ما قد طالما سألتك.» حينئذٍ كشف لي عن قلبه الالهي قائلاً: «هوذا القلب الذي احب البشر الى حدّ ان لم يضنّ عليهم بشيء، حتى استنزف وافنى ذاته ابداء لحبّه لهم. وما من مكافأة القاها من اكثرهم سوى كنودهم نحوي، باتهاكهم مهابتي وخرقهم حرمة اقداسي وخمود عبادتهم واحتقارهم لي في سرّ محبتي هذا. على انّ ما يؤلمني بالاكثر هو ان المذلة الموصوفة صادرة عن قلوب تكرّست لي. ولذا ارغب اليكِ ان يُقدّس اول يوم جمعة يقع بعد ثمانية خميس الجسد، بعيد خاص، يُكرَّم به قلبي بالمناولة في ذلك النهار والوفاء لجلاله بالاستغفار، تعويضاً عن الاهانات التي لحقت به طيلة الوقت الذي كان فيه مصموداً على المذابح. واني اعدك ان قلبي يفتح فيُطل سوابغ حبه الالهي على الذين يؤدّون له هذا الاكرام ويسعون في ان يُقدّم له.» (١)

فاجابت القديسة: «ربي أتتكل عليّ في امر كهذا وانا خليقة دنيئة وخاطئة تعيسة قد يكون شقاؤها عقبة في سبيل تحقيق مقاصدك، ولديك من ذوي الشهامة كثيرون يستطيعون تتميمها؟»

فاجابها: «أولا تعلمين انني استخدم من تبّاعي أضعفهم لاخزي الاقوياء وان قوتي تتجلى عادة في احقر الماكين بالروح باجلى مظاهرها، لئلا ينسبوا الى انفسهم منها شيئاً؟»

قالت: «فاعطني اذا واسطة للقيام بما تأمر.» فاجابها: «عليك بعبدي الاب دي لا كولومبيار اليسوعي. قولي له من قبلي ان ابذل المستطاع في اقامة هذه العبادة فتسرّ قلبي الاقدس. ولا يوهننّ عزمه ما سيلاقي من الصعوبات... بل ليعلمنّ ان من تحرّز من نفسه وجعل كل اتكاله عليّ فهو القادر الظافر.»

ولم يكن الاب دي لا كولومبيار، بما ازدان به من سداد الرأي، ليركن عن طيش الى اي قول يسمعه. الّا ان ما قام لديه من الادلة الصريحة على صدق الفضيلة ومتانتها في القديسة، ولاسيما على تواضعها وطاعتها، لم يترك له مجالاً للريب في صحة ما قالت.

---

(١) *Loc. cit. p. 355.*

وعليه لم يألُ جهدًا في تحقيق ما من اجله اختاره الرب المخلص. وكيما يقوم بمهمته احسن قيام شرع بمزاولتها بادئ بدء لدى نفسه ؛ ففي اليوم الخامس بعد الرؤيا الموصوفة ، تكرّس المرشد وتلميذته للقلب الاقدس . وكان ذاك يوم الجمعة الواقع في ٢١ حزيران ١٦٧٥ ، وهو تاريخ اول عيد أُقيم لقلب يسوع طبقاً لرغائبه[1]

٧

رسول القلب الاقدس

في باريس ولندرة

وللحال شمّر الطوباوي عن ساعد الجدّ لبثّ العبادة المنشودة في الافئدة . فكان بما فُطر عليه من الفطنة والوزانة والرقّة ، ينتهز لذلك كل الفرص السانحة ، بمواعظه في كنائس باراي وغيرها ، ولاسيما في ارشاداته ورسائله الى اعضاء اخوية العذراء التي اسّسها في باراي للرجال . فكثيرًا ما كان يحضّهم على الوفاء للقلب الاقدس واكرامه ، حسب مرغوبه ، بافعال التكريس والمحبة وبالمناولة التعويضية ، وبتقديس اليوم الذي عينه الرب ، اي يوم الجمعة الواقع بعد ثمانيّة عيد الجسد .

وكان الطوباوي قد اقام عيد القلب الاقدس للمرة الثانية اذ تلقى في اواخر آب ١٦٧٦ امرًا من الرؤساء بالذهاب الى عاصمة الانكليز ، حيث عينوه واعظًا لدوقة يورك وخادمًا لمبدها . فوصل الى لندرة في ١٣ تشرين الاول وحلّ ضيفًا في قصر سانت جامس .

ثمّة كانت تنتظره الصلبان من كل نوع ، على ما كانت القديسة مرغريتا مريم قد انذرته من قبل يسوع ، برسالة وجيزة وجهتها اليه قبل سفره ، تنشيطًا له في ايام المحنة .

وقد مكث في لندرة مقدار سنتين وشهرين ، بذل اثناءها جهده يدرّب

---

١) عن سيرة القديسة مرغريتا مريم لماصراغا (ص ٩٣ – ٩٤) . وتجد هذه السيرة في المجلد الاول من الكتاب المذكور آنفًا .

الانفس على العبادة للقلب الاقدس. ومن مفاعيل غيرته ان دوقة يورك تلميذته كانت في طليعة الذين رفعوا العرائض للحبر الاعظم اينوشنسيوس الثاني عشر ملتمسين اقامة عيد للقلب الالهي (٢٣ اذار ١٦٩٦) . وقيل انهُ وجد في معبد ونسور (*Windsor*) الملوكي ، بين نقوش الكرسي الملكي ، صورة لقلب يسوع يرتقي عهدها الى زمن اقامة الطوباوي في لندرة.[1]

وقد صنّف الاب في ذلك الوقت عينه عدّة خطب ، منها مواعظ الصوم الكبير للعامين ١٦٧٧ و ١٦٧٨ ، وغيرها لاعياد مختلفة ، كما وتأمّلات في آلام المسيح خصّ بها الرجال في الاربعينيّتين المذكورتين. وله فيها اساليب لطيفة مكّنته من بثّ العبادة المنشودة في الانفس مع مراعاة ذهنية السامعين. فطبعاً لم يرَ بعد من الحكمة ان يتخذ رأساً القلب الالهي موضوعاً لارشاداته. الا انه كان ، كلما سنحت الفرصة يقول شيئاً عنه فيحثّ المؤمنين على اكرامه والاتكال عليه وتأدية التعويض له والاقتداء به.

من ذلك ما جاء في عظته الاولى لجمعة الآلام وقد جاءت كانها صدى لتظلمات القلب الالهي في رؤياه الشهيرة لأمته ، وقد مثّله يخاطب المؤمنين قائلاً:

« يا ايها البشر الذين يكتفون بالنظر الى جسدي هذا المهشم المثقوب بالمسامير ؟ ألا ادخلوا عنيةً جراحي الخفية وتأملوا هل من وجع كمثل الذي اعانيه في روحي» ؟

فيجيب الخطيب:

« لا يا رب. ليس من شيء يُشبّه بوجعك . فانّ عظمتك كالبحر (مراثي ٢ : ١٣). وفي قلبك بحر آلام عجّاج . . . نعم يا إلهي ، اني من الآن وصاعداً لاجعلنّ رائداً لتأملاتي آلامك الداخلية ، تلك الملجان الخفية . ولقلبك الحزين تكون كل محبتي وحناني فأشتغل بالنوح على جراحه الدامية . . . »

وقال في تأمله الثالث:

« ليكوننّ قلب يسوع المسيح مدرستنا ، ولنجعلن به اقامتنا في هذه الاربعينية ، ولندرس حركاته ، ساعين في جعل قلبنا مثله . »

---

١) راجع Alet, *La France et le Sacré-Cœur, p. 286.* – ذكره زيل (Zelle) في مؤلفة المذكور آنفاً ، ص ٢١

٨

تلميذ القلب الاقدس المتألم

وفي الوقت ذاته كان الطوباوي ، في قصر سان جامس ، مثالاً حياً بسيرته لفضائل القلب الالهي.

وكانت غرفة الاب مشرفة على الساحة الممتدة امام القصر. على انه لم يقترب قطّ من النافذة ولم يلقِ نظره منها على شيء يتلهى به . وقد غادر لندرة ولم يحضر فيها مشهداً البتة. ولم يرَ شيئاً من تحف المدينة ولم يذهب مرة واحدة الى النزهة . ولم يزر الّا المرضى والذين كان له امل ان يُفيدهم بمواجهته لهم. وبالرغم من كرهه الطبيعي لالوان الطعام الانكليزية ، كان يقتصر عليها لا يطلب غيرها. واما رقاده فكان على فراش يطويه في مجر النهار ويمدّه عند المساء على الحضيض في وسط الغرفة . ولم يسمح قط ان يوقدوا لها ناراً ليدفأ من البرد ، وناهيك بشدته بلندرة في فصل الشتاء. هذا فضلاً عن اماتاته الخفية.

وان كان تقشفه هذا المتواصل قد نشطه روحاً فلا شك انه اضناه جسداً. وقد اشتهرت العاصمة الانكليزية بضبابها. والظاهر ان الاب احتمل مفاعيله في السنة الاولى بدون ما اذىً يُذكر . واما الشتاء الثاني فقد اتاه بالمرض القتّال ، اذ حصل له اولاً احتقان في شعب رئتيه مما لم يمنعه ان يواصل اعماله عدة اشهر. على ان المرض لم يلبث ان اتصل بالرئتين عينهما . فاخذ الاب يبصق الدم في ١٤ آب ١٦٧٨ . فحسم الاطباء بضرورة تغيير المناخ ، لكنّ حالته الضعيفة لم تمكنه من الانتقال[1]

ومما قال هو في احدى رسائله من ذلك التاريخ: «لا استطيع الكتابة ولا الخطابة بل اكاد لا اقوى على الصلاة. فلتكمل مشيئة الله.»

ولا جرم فمن شأن هذه المشيئة الالهية ورحمتها الحكيمة ان تمتحن القديسين بالآلام كي يكونوا تلاميذ اخصاء للمصلوب القائل : «من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعني» (متى ١٦ : ٢٤) . ولم يكتفِ ، جلّت

١) عن مقدمة كتاب مواعظه وغيرها.

رأفته ، ان يختبر صفيَّه باسقام الجسد بل شاء ان يخصه ببركة الاضطهاد من اجل اسمه .

٩

الرسول المضطهد

كانت انكلترة بروتستنتية منذ فصلها عن الوحدة الرومانية والعقيدة الكاثوليكية هنري الثامن ، يحكم عليها اذ ذاك ، اسماً لا فعلاً ، شارل الثاني . وكان في الظاهر يدين بالاصلاح الموهوم خوفاً من الشعب والندوة . واما قلبه فكان على المعتقد الكاثوليكي الذي مات فعلاً عليه (١٦٨٥) . على انه قلما تمكن من تلطيف الشرائع الجائرة التي كانت الكثلكة تئنّ تحت وطأتها في مملكته . واما اخوه وولي عهده ، جاك ستيوارت ، دوق يورك ، فكان كاثوليكياً قلباً وقالباً . وكذلك زوجته الدوقة . وهي اميرة من الاسرة الملكية الفرنسية رضيت بان تعدل عن الانحراط في السلك الرهباني فاقترنت باخي الملك ، عملاً بنصيحة البابا اكليمنضوس العاشر (١٦٧٣) .

وكان الدين الكاثوليكي في ذلك العهد محرّماً لدى الانكليز ، لا يحقّ الّا للسفراء والامراء ان يمارسوه ، وذلك في معابدهم الخاصة .

ففي اواخر العام ١٦٧٨ قام رجل من الاكليروس الانكليزي يدعى تيطوس اوتس (*Titus Oates*) ، ولفق رواية دسيسة من الكاثوليك ، يريدون بها ، على ما زعم ، قتل الملك وبعث البابوية (*le Papisme*)[1] فوشى بهم ظلماً وعدواناً الى الملك ووزرائه . وما كان اسهل عليهم ان يتحققوا البغي مما اشتهر به ناسجه من الرياء والتقلب على حسب مقتضى مصلحته الشخصية . فانه قبل ان يبدي هكذا غيرة على المذهب الانكليكاني ، كان قد خانه اذ جاهر بالكثلكة لدى اليسوعيين في سانت اومر . وناهيك بما حوى من المناقضات الخبر الذي حاكه بدون ما دليل ولا ما يشبهه . وبالرغم من هذا كله ارتاعت الحكومة ايما ارتياع وقامت تشدّد التنكيل بالكاثوليك وامرت

١) هكذا كان البروتستانت يدعون الدين الكاثوليكي تعييراً .

الطوباوي بعظ دوقة يورك

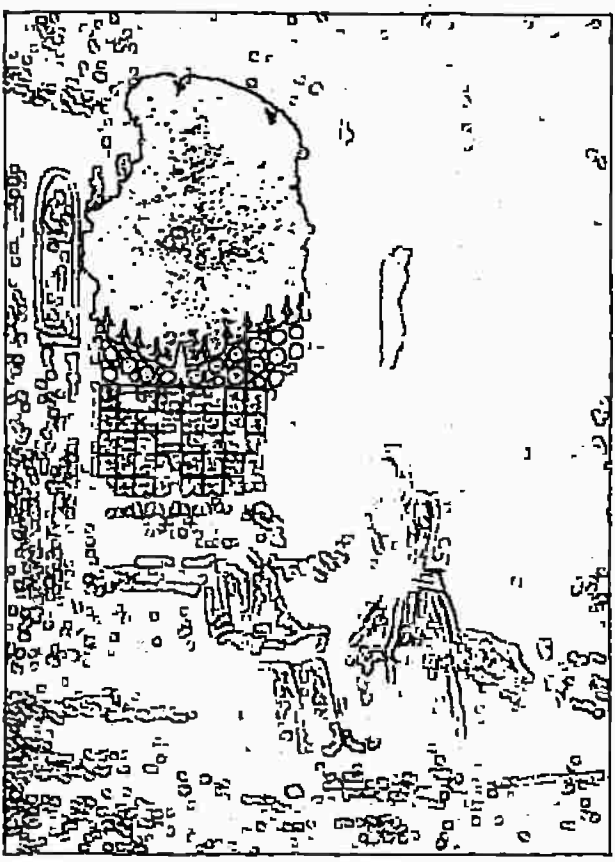

الطوباوي يشرح للاب دي غاليفه اسرار العبادة
لقلب يسوع الاقدس

بالقبض على كثيرين منهم.

ومن جملة الذين تناولهم لعر التوقيف رجل الله ، مع ما عُرف به من التنحي التامّ عن السياسة ومكايدها . الّا ان المتعصبين الفوه غنيمة اثمن من ان يخلوا عنها . وقد سهّل لهم الامر شابٌ افرنسي من مقاطعة الدوفينه ، كان للاب فضلٌ سابق عليه اذ عُني بتعليمه ونصحه بل تصدّق عليه ببعض المال . فخانه ووشى به الى اولياء الامر مدعياً انه من دعاة البابوية العاملين.

وكان وقتئذٍ دوق يورك وقرينته متغيبين عن لندرة . فانتهز الفرصة رجال الشرطة ودخلوا قهراً قصر سانت جامس وقبضوا على الطرباوي واقتادوه الى سجن كنس بنش (*King's Bench*) العامّ ، حيث قضى نحو شهر برقعة اسفل اوباش المدينة ، وهو ضعيفٌ قد انهك المرض قواه.

ولا شك انه تذكر ، في هذه المحنة ، ما كان قد كتب في رياضته الكبرى (ص ٣) حيث قال :

« سيأتي لديّ ، بنعمة الله ، كل الاحوال التي قد تطرأ على الجسد ، من صحة ومرض وعجز وحياة وموت . وكأني بي احسد الذين فصلهم الدهر او عاهة اخرى عن سائر العالم ففضت عليهم ان يعيشوا كانهم اموات . . . وقد اضرم الله فيّ رغبةً شديدة ألّا احب شيئاً سواه وان احرّر قلبي من كل تعلق بالخلائق ، حتى انّي لو زُججت بتهمة باطلة في سجن مؤبد لحسبت نفسي متمتعاً بحظ لا نظير له ، ولا اخالني كنت بحول الله اشعر بذل البتة. »

وقد تحقق القضاة اعينهم براءة رجل الله ولم يأخذوا عليه سوى مزاولة وظيفته الكهنوتية ، ولكن داخل القصر لا خارجاً عنه . وقد احتجت دوقة يورك على خرق حرمة سراياها ، وطلب لويس الرابع عشر بواسطة سفيره الافراج عن الاب. وبعد اللتيا والتي اكتفت الحكومة بقرار وقع عليه الملك ، بنفي اليسوعي من البلاد . فغادرها متوجهاً الى باريس في اوائل كانون الثاني من العام ١٦٧٩[1]

١٠

الجهاد الاخير

ومن باريس استدعاه الرئيس الاقليمي الى ليون . فسار اليها سيراً بطيئاً

١) راجع مقدّمة كتاب المواعظ المذكورة آنفاً وايضاً *Le Messager du Sacré-Cœur, juin 1929, pp. 337—340.*

لداعي مرضه . فاخذ قسطاً من الراحة بضعة ايام اولاً في ديجون ثم في پاراي لي مونيال . فزار فيها دير الزيارة حيث وجد العبادة للقلب الاقدس في تقدم مطرد ، ومعظم الراهبات متقدات تقوى وغيرة حارّة ، عاكفات على اعمال الكفارة والتعويض .

على ان المعاكسات لم تخفّ عن تلميذته مرغريتا مريم . ذلك خصوصاً لان الام غريفيه ، وكانت رئيسة منذ نحو سنة ، دأبت في محنها ومقاومتها وتحقيرها . بل اصدرت اوامر ضيقت بها نطاق الاعمال التي كانت تمارَس في الدير اكراماً لقلب يسوع .

وقد فاز الاب دي لاكولومبيار باقناع الرئيسة المذكورة ، وازالة ما كان عالقاً بذهنها من الاوهام في شأن تلميذته ، اذ بسط لها الادلة القاطعة على قداستها وصدق ما نقلته من وحي الرب اليها . واخصّ هذه الادلة تواضعها وبساطتها ، وطاعتها الدقيقة ، وكفرها بذاتها ، مما لا يمكن ان يكون من مفاعيل الروح الشرير .

وبلغ الاب ليون في ١١ اذار ١٦٧٩ . وما لبث ان أُرسل بايعاز من الاطباء الى مسقط رأسه سان سنفوريان دوزون ، على امل انّ مناخ وطنه يشفيه من مرضه . وفي الخريف كانت صحته قد تحسنت نوعاً فعيّنه الرؤساء مرشداً روحياً لاخوته الرهبان ، طلّاب الفلسفة في مدرسة الثالوث الاقدس بليون .

وكأنّ العناية الربانية ، بتدبيرها هذا ، انما توخّت اعلاء شأن العبادة لقلب يسوع الاقدس . فقد قضى الاب دي لاكولومبيار نحو عامين يدرّب على اصولها هؤلاء الطلّاب . حتى اذا ما سيموا كهنة بعد وفاة معلمهم ، قاموا يبسطون تعاليمه في القلب الالهي ويدافعون عنها .

وقد اشتهر بينهم الاب يوسف دي غاليفه بكتابه «في التعبد لقلب الهنا وربنا يسوع المسيح[1] .» وهو من اقدم المصنفات في الموضوع واجلها . ومثله الاب

(١) P. J. de Gallifet, S. J., *De Cultu Sacratissimi Cordis Dei ac Domini nostri Jesu Christi, Romae, 1726.*

يوحنا كوازه . وله سفر جليل في الموضوع نفسه[1]. وقد اخبرني احد الرؤسا السابقين لديرنا في الشهباء انه عثر لدى بعض العيال الكاثوليكية فيها ، على اكثر من مخطوط قديم لترجمة مؤلف الاب كوازه العربية . ولا عجب فالمشهور عن حلب انها اول المدن الشرقية التي انتشرت فيها العبادة للقلب الاقدس .

ثم عاود المرض الطوباوي كلود ، بل اشتدت وطأته عليه . فارسله الاطباء ثانية الى سان سنفوريان ، ولكن بدون ما جدوى . واذ يئسوا من شفائه بعثوه الى پاراي لي مونيال ، علّ هواءها المعتدل ينعش رئتيه . فوصل اليها في آب ١٦٨١ فقضى فيها ستة اشهر يعاني اهوال مرضه القتّال . وفي ١٥ شباط ١٦٨٢ ، الساعة السابعة مساء ، تسلّم الرب يسوع روحه البارّة .

وفي الساعة الخامسة من صباح اليوم التالي نعته الى القديسة مرغريتا مريم الانسة دي بيزفران (Mlle de Bisefrand) وكان مرشد اعترافها . فاجابت القديسة بلهجة الحزن : «صلي واطلبي صلاة من اجله» . على انها ما لبثت ان كتبت اليها في الساعة العاشرة من النهار عينه : «ألا كفي عن الحزن ، بل توسلي اليه ولا تخافي ، فان قدرته لاسعافك هي اليوم اعظم مما كانت في يوم من الايام .» واذ عجبت رئيستها كيف لا تقدّم لراحة نفسه الصلوات والتقشفات ، اجابتها : «هو في غنى عنها بل هو اجدر بان يصلي من اجلنا ، اذ يسكن محلًّا جيدًا في السماء ، بجودة ورحمة قلب يسوع الاقدس . نعم كان قد بقي عليه ان يفي عن بعض غفلات في ممارسة الحب الالهي . ومن اجلها حُرمت نفسه معاينة الله من حين وفاته حتى دفنه .»[2]

ونعم القول ! ففيه تقريظ للاب دي لا كولومبيار لا نعرف أبلغ منه سوى الرقيم الذي به اعلنته الكنيسة المقدسة طوباويًا .

(١) *La dévotion au Sacré-Cœur de N.S.J.C., par un Père de la Compagnie de Jésus* (le R. P. Jean Croiset) *d'après l'Edition définitive, 3e de Lyon, 1694, Montreuil - sur - Mer, Imprimerie Notre-Dame des Prés, 1895.*

(٢) راجع سيرة القديسة لمعاصراها المذكورة آنفًا ص ١٥٤ - ١٥٦ .